

# نهاية الاشتراكية الشمولية

## عمانوئيل طود يستشرف مستقبل

### النظم الشمولية الاشتراكية

د. عقون محمد العربي

قسم التاريخ والآثار

جامعة منتوري - قسنطينة

مقدمة

عمانوئيل طود (Emmanuel TODD) هو حفيد بول نيزان (Paul Nizan) وابن أوليفي طود (Olivier TODD)، من عائلة فرنسية بارزة ظهر فيها مشاهير في الصحافة والرواية، ولد سنة 1951، انخرط في الحزب الشيوعي الفرنسي في بداية شبابه، ثم انسحب منه في وقت مبكر. مجاز في التاريخ ويحمل شهادة من معهد الدراسات السياسية، انتقل إلى إنكلترا ونال شهادة الدكتوراه في التاريخ من جامعة كيمبريدج.

وكيف نفسر نجاح الماركسية في القرن العشرين وهل ينبغي التخوف دائما من نمو سلطة الدولة ونمو الشمولية، أم ينبغي - على العكس - قبول تنامي جديد لنزعة تدخل الدولة (Interventionnisme) - دون خوف - كحل للأزمة الاقتصادية الدولية، وبصرف النظر عن الحوار المجرد وتصادم المذاهب فإن عمانوئيل طود يحمل جوابا جديدا وأساسيا لهذه الأسئلة التقليدية عن هاجس الشمولية (Totalitarisme) متناولا مواضيع هي الأخرى تشكل هاجسا لإنسان العصر مثل: الانتحار، النزعة إلى الإدمان، السكيزوفرينيا (Schizophrenie) (3) وحوادث الطرقات الشبيهة بظاهرة باتولوجية (4) اجتماعية، وهي ظاهرات يرى أنها تمت لبعضها بصلة متينة.

إن دراسة هذه الظاهرات (Phnomnes) في رأي طود دراسة موازية، تسمح بتعريف وفهم التحولات الذهنية في القرن العشرين، وعلى وجه الخصوص النزعة إلى التدمير الذاتي (Autodestruction) التي ظلت مهيمنة طيلة سنوات 1900 - 1950 (5).

صرح طود بأن انتقاله إلى إنكلترا منح له فرصة أن يرى المجتمع الفرنسي من الخارج كما أنه في رده على سؤال لماذا ألف كتابه: المعتوه والبروليتاري (Le Fou et le prolétaire) (1) أجاب بأن البروليتاري في "خرفة" اليسار الحالي هو محرك التاريخ في القرن العشرين، لكن ذلك في رأيه ليس صحيحا فالبرجوازية الصغيرة هي محرك التاريخ وحتى البروليتاري يكون فقلا أكثر عندما يتحول إلى عضو في هذه الطبقة.

من هذا الطرح انطلق عمانوئيل طود في أبحاثه محللا وناقدا الأنظمة الشيوعية والاشتراكية من زاوية نمو سلطات الدولة وخطر ذلك على المجتمع لأن تضخم جهاز السلطة يجعل الشمولية أخطبوطا.

صدر كتاب طود: المعتوه والبروليتاري العام 1980 ويقع في حوالي 340 صفحة من الحجم الصغير، وقد كتب الناشر يعرف بمحتواه ومرايمه في آخر الغلاف ما يلي:

"...ما الذي يثير قضايا الانزلاق العسكري والشمولي (Totalitaire) (2) في سنوات 1914 - 1945

## مضمون الكتاب:

احتوى كتاب طود - بعد توطئة وتمهيد - على الأبواب الآتية :

- الإيديولوجيا والسكيزوفرنيا.
- تنامي سلطة الدولة.
- دراسة التاريخ الأوربي بعيدا عن المادية التاريخية.
- الحماقات البرجوازية.
- أي الطبقات أخطر؟.
- الانضباط، الهشاشة والعذوانية، أي مميزات قومية؟.
- التقاليد والتحوّلات الفكرية.
- تحليل نفس الماركسية.
- من اللاوعي الاجتماعي إلى الاختيار الذري.
- عودة النخب إلى التوازن.
- حالة الارتياح (Dcrispaton).
- طبقتان عمّاليتان.
- الشيوعية الفرنسية (1921- 2055).
- القلق الألماني.
- أزمة خفيفة في بريطانيا.
- العنف الإيطالي، العنف الأوربي.
- وختم الكتاب بخلاصة وملاحق وشرح، وقد اخترنا تقديم عرض موجز لفصل نراه هاما في الكتاب وهو تنامي سلطة الدولة.

## تنامي سلطة الدولة (الشمولية):

إنّ النقاش الحادّ حول الشمولية، يلجّ عموما على الدور الحاسم لجهاز الدولة في تطوّره وصورته مراقبة المجتمع من قبل قائد (Chef) وتيار شمولي، لا سيّما وأننا نلاحظ منذ قرون نزعة قوية إلى تنامي سلطة الدولة.

رسم برتراند دوجوفنال (Bertrand de Jouvenel) المراحل الرئيسية لهذا "الغزو" التدرج لأجهزة الدولة في كتابه: في السلطة (Du Pouvoir) كما أن أغلب الباحثين المتعقلين وصلوا اليوم إلى خلاصة أن استعداد الماركسية المذهل - حقيقة - لإيجاد صيرورة شمولية مستديمة لا يوافق كثيرا ادّعاءها بأنها تشوّبت كل النشاط الاجتماعي داخل الدولة.

إن إضفاء الطابع الاشتراكي (Socialisation) على وسائل الإنتاج والتبادل، لا يكاد يبدو إلا كمرحلة أخيرة في بناء

وتدعيم جهاز الدولة، وأنّ افتراضا كهذا في حدّ ذاته مُغرّ كثيرا ومسوّغ لافتراضات موازية ومدهشة، مثلا كيف لا نرى في ستالين الخلف العظيم لإيفان الرهيب (Ivan Le Terrible)، إذا احتفظنا ببطرس الأكبر كسلف للنين، على أننا نكون بذلك قد خلصنا إلى معادلة بسيطة وسريعة وهي: "إنّ الشمولية تتشكل حسب وظيفة وحجم جهاز الدولة"، وإذا كان الحال هكذا فإن بلدان غربي أوروبا كانت شمولية قبل روسيا أو الصين بكثير، لأنّ تعقّد وغشّ أجهزتها الإدارية كان منذ وقت طويل أكبر من أجهزة دول الشرق البدائية جدّا، فيبروقراطية لويس الخامس عشر تساوي دون رب ييروقراطية ستالين.

إن معادلة الشمولية تساوي دولة كبيرة لا تكاد تقدّم لنا شيئا عن صيرورة التحرر الجزئي للمجتمع المدني من قبل السلطة المركزية وأن هذه الظواهر Phénomènes تعيد نفسها في التاريخ الأوربي.

كان التدرج واضحا في عهد لويس السادس عشر حيث أن الحكومات لم تتبع سياسة الرقابة الاجتماعية أو سياسة فرض الضرائب أو الحرب الشاملة التي اتبعتها حكومة لويس الرابع عشر "الملك الشمس" المصاب بجنون العظمة، وفي روسيا القيصرية الأخيرين، ظهر تيار حكومي يرمي إلى التملص من العهود ونقضها، فتمو سلطة الدولة هي ظاهرة متقطّعة حيث أننا نلاحظ منذ عشرة قرون في أوروبا الغربية ظاهرة تنامي عامّة لا تستثني الدورات السابقة، فهناك خلال فترة لويس الرابع عشر روبسبيار ونابوليون، وفي 1914 ظهرت حمّى نموّ طافحة لسلطة الدولة، ولكن ليس لها تبار متواصل لا غير<sup>(6)</sup>.

نستخلص مما تقدم بأن أجهزة الدولة جميعها لا تعتدي على المجتمعات التي تديرها دائما، ولفهم هذا التذبذب (Oscillation) في سلوك البيروقراطيات المركزية ينبغي السير بالتحليل إلى أبعد من هذا، والكفّ عن الاستمرار في اعتبار جهاز الدولة كآلة أصلية وبسيطة، أو كأداة في يد الحاكم أو القائد أو الطاغية. مع أنه يوجد في كل أجهزة الدولة أو آلياتها الحديثة عناصر ميكانيكية دقيقة وأشياء وأدوات رقابة اجتماعية، فإن التجهيزات العسكرية والقمعية هي عامل تقني، حيث أن قوتها لا تتوقف إلا في

أشخاص منبقة من طبقات اجتماعية مسيطرة وذات امتياز ولها سلطة وآراء ومشاعر سواء اعترف بذلك أو لم يعترف، وخلف هذه البيروقراطيات الهائلة ينبغي البحث عن مقدار "الهيّاج" الفردي الواقع في القطاعات - المفاتيح (Clefs-Secteurs) للمجتمع والمثلة في السلطة المركزية والطبقات المسيطرة عموماً.

في سنة 1980 كانت إمكانات تقنية القمع لا تزال أعلى مما كانت عليه في 1930، فقد خُفّف العقل الإلكتروني من الحاجة إلى فعالية مخزون أسلحة معينة، وخلال العشرينات الأخيرة شهدت أوروبا إخلاقاً (Prolifration) استثنائياً للبيروقراطيات الخاصة والعمومية على السواء، على أن هذا التضاعف لأدوات الرقابة التصاعديّة، لا ينطوي على شيء مطلقاً، بل إنه بسبب هذا التضاعف وحده تكون أوروبا على عتبة التدفق الشمولي (Implosion Totalitaire) ويخلص طود إلى أن المجتمع العصري هو مجتمع بيروقراطي مؤلف من ألف من الأنظمة الإدارية التصاعديّة المسيطرة والمهددة، وعلى رأسها الدولة كوحش وآلة دموية<sup>(9)</sup>.

### خاتمة

لقد كانت أبحاث عمانوئيل طود في وقتها تستشرف مستقبل العالم الاشتراكي الذي سينهار قريباً، هذا العالم الاشتراكي الذي اخترع منظّره جهازاً بيروقراطياً ثقيلاً لدفع المجتمعات إلى "جَنّة" العدالة الاجتماعية، وهم بذلك كانوا كمن يستبدل السيِّء بالأَسوأ (استبدلوا القهر الذي مارسه رأسمالية متخلفة بالقهر الذي ستمارسه أجهزة بيروقراطية معقّدة) وتسببت تلك السياسة في سحق الرأسمالية ولكن لم تصنع الرخاء الموعود وهو ما سمّاه طود بالنزعة إلى التدمير الذاتي... ومن المفارقات العجيبة أنّ أحلام الطبقة الشغيلة تحقّقت في الغرب الرأسمالي أكثر من الشرق الشيوعي، أما العالم العربي فقد فاته أن يتفتّح على مثل هذه الدراسات التي تنقد وتشخص الداء وتقدّم البديل ولذلك نراه ما كاد يقوم من نكبة الاستعمار حتّى وقع في سجن الشمولية البيروقراطية وهاهو الاستعمار يعود إليه من جديد.

مستويات علمية في عصر معيّن، وهو ما نلاحظه بدقّة في مجال "تكنولوجيا" الرقابة الاجتماعية للتقدّم السريع في الآن نفسه حيث أن ذلك من الأشياء الأساسية التي ترعج الشموليات الحديثة. إنّ بداية القرن العشرين هي بداية عصر جديد ثانٍ، اخترعت خلاله الرشاشات ودبابات الاقتحام والأسلاك الشائكة، فهل يمكننا كتابة تاريخ الستالينية أو الهتلرية أو حرب 1914-1918 دون إدماج مختلف هذه العناصر، فلقد كانت المحشّدات (Camps de Concentration) -مثلاً- حوالي السنة 1850 تمثّل استحالة تقنية، وكذلك مسألة مراقبة المدن بكاملها بواسطة عدّة وحدات معجزة بالدبابات والرشاشات كان بالمثل غير متصوّر حوالي 1848-1871، فالزيادة في إنتاجية النظام القمعي يكون شرطاً أولياً للنظام الشمولي الحديث، ويبقى أن نذكر بأن الأسلاك الشائكة والرشاشات ليست اختراعاً روسياً أو حتى ألمانياً ولكنه إنتاج أنكلوسكسوني وفرنسي أعدته الدول الأولى كوسيلة قمع لا حدود له، ولكن لم تستعمله ضدّ رعاياها، ولفهم عدم استعماله كتقنية مغرية ينبغي المرور إلى الشكل المركزي في هذا التحليل وهو الجوهر البشري للبيروقراطية<sup>(7)</sup>.

إن البيروقراطية المستهجنة هي التي تكون ذات أوراق كثيرة، واحتمالاً ذات سلاح، وتكون خاصة من مجموعة أشخاص منظمين تصاعدياً، وما يهتّن هنا هو التوازن النفساني للأشخاص الذين يؤلفون الآلية المركزية فهم يتقمّصون الدولة ولا يعتبرونها "شيئاً"، لأن كل الأجهزة الإدارية لا تشتغل بشريا بنفس الطريقة وبالنسبة لنظام شمولي لا بدّ من بيروقراطية مركزية وألف بيروقراطية ثانوية تحتها<sup>(8)</sup>. إنّ السياق الواقعي يجعلنا نتساءل ماذا لو وضعنا هتلر أو ستالين على رأس جهاز الدولة البريطانية حوالي 1930، لا ريب أن ذلك يثير الضحك، فالتشكيكة البشرية للأجهزة الإدارية تعتبر مفتاح تاريخ القرن العشرين، ولا يمكن الاكتفاء بوشم كل سلطات الدولة بأنها شؤم ونحس، بل يجب فهم لماذا تتصرف بعض البيروقراطيات بحمية كالقتلة الساعدين، ولماذا تدير بيروقراطيات أخرى القضايا العامة بصفة عادية، فالدولة ليست آلة وإنما هي مجموعة

العدمية (Nihilisme) بإعلانها الحرب على الحياة عامة وهذا يقترب مما عثر عنه بالتدمير الذاتي، وفي هذا السياق ننوه بعمل الأستاذ / أدونيس العكر: الإرهاب السياسي... في سلسلة السياسة والمجتمع، دار الطليعة بيروت 1983، ومع أن بحثه أتجه - بحكم الفترة التي أنجز فيها - رأساً نحو أجهزة الحكم إلا أن التطورات التي فاجأنا بها العقد الأخير من القرن الماضي وبداية القرن الحالي تجعل من الضرورة أن يتوجه الباحثون الاجتماعيون خاصة نحو التامة الشمولية التي برزت كنزعة عدمية معادية للحياة.

(6) - Todd (E.), op. cit. p.51-52.

(7) - id. p. 52.

(8) - اعتبر عالم الاجتماع الألماني داهرندورف أن: البيروقراطية هي جيش احتياطي للسلطة... جيش مرتزقة للنزاع الطبقي. وهذا يعني أن البيروقراطيين ينتمون إلى الطبقة الحاكمة ويضعون قوتهم دائماً في خدمة سادة متغربين وأهداف متغيرة، أنظر: الأزرق (مغنية)، نشوء الطبقات في الجزائر، ترجمة سمير كرم، نشر مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1980، ص 177-178. ومن جهتنا نرى أن هذه البيروقراطية في حال الجزائر هي التي عثر عنها الرأي العام عندما بحزب الإدارة ونذ بتجاوزاته وأدواره المشبوهة في الانتخابات وتعتفه واصفا إياه بالإرهاب الإداري.

(9) - Todd (E.), op. cit., p. 53.

(1) - Todd (Emmanuel), Le Fou et le prolétaire, éditions Pluriel, paris 1979.

(2) - الشمولية أو الكليانية (Totalitarisme) هي نظام سياسي ذو حزب واحد، لا يقبل أي معارضة منظمة، وفيه تسيطر السلطة السياسية سيطرة صارمة على جميع جوانب الحياة والطاقت المتجة.

(3) - السكيزوفرنيا (الفصام) هي عبارة عن بلاء مبكرة ينطوي المريض المصاب بها على نفسه مندفعاً تحت تأثير تيار التجول الذهني في عالم الخيال والوهم، وعدم الاتساق بين المزاج والفكر.

(4) - الظاهرة الباثولوجية (Phénomène Pathologique) هي ظاهرة مرضية أو عارض مرضي مشخص وعموما يقصد بها هنا الوضع غير الطبيعي.

(5) في رأينا هي نزعة يحركها نشاط (Activistes) في بعض الأوساط المتشددة وتنفذها بروليتاريا من الدهماء لا تعي أفعالها، وهذا ما حدث في البلاد التي تعاني اليوم من الإرهاب، ويقودنا سياق التحليل الذي اعتمدته طود إلى استنتاج أن التامة الشمولية (Intégrisme Totalitariste) جاءت ردًا على الشمولية السياسية - الإدارية (Totalitarisme Politico-Bureaucratique) إذ لا يختلف هؤلاء وهؤلاء إلا في الأدوات والوسائل وإذا كانت الثانية قد أبقّت على الحد الأدنى فإن الأولى رفعت لواء